نظرات في سورة يوسف (7)

آيات للسائلين

طارق مصطفى حميدة

مركز نون للدراسات القرآنية

كان موضوع المقالة السابقة عن الشطر الأول من قوله سبحانه: ﴿ لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾، أي لماذا كان موضوع القصة يوسف وإخوته؟ أما هذه الحلقة فتحاول أن تفسر الشطر الثاني، أي من هم السائلون الذين تنتصب لهم آيات القصة؟.

هل السائلون هم من صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، الذي يتعرضون للأذى والاضطهاد، ويسألون عن يوم الفرج والنصر والتمكين؟ وقد جاء فريق منهم ذات يوم إلى الرسول يشكون سائلين: ألا تستنصر لنا؟ ألا تدعو لنا؟ فتأتي هذه السورة الكريمة، تقص عليه وعليهم، شدة ما عاناه يوسف من الكيد والغربة والبعد عن الوالدين، والرق والسجن، ثم يأتي التمكين بعد الصبر والتقوى، وكأن السورة تبشرهم بالنصر الآتي لا محالة بعد استكمال شروطه وتنفيذ متطلباته، فلا تستسلم نفوسهم لليأس والوهن.

والاحتمال الثاني أن يكون السائلون من مشركي قريش، يطلبون آيات مادية ومعجزات حسية على صدق الرسول عليه الصلاة والسلام، كما حصل منهم مراراً: ﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين﴾[العنكبوت: 50]، ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد:7]؟؟، فتأتي السورة الكريمة توجههم إلى آيات من نوع آخر أكبر وأعظم، وهي قصة يوسف وإخوته، ذلك أن مشكلة الكفار ليست في ضعف الأدلة ولا في غياب البراهين، ولكنها في العناد والكبر، ومن هنا جاءت سورة يوسف، لتبين لهم أن عاقبة قصتهم مع محمد صلى الله عليه وسلم، هي ذات عاقبة قصة يوسف مع إخوته، فإن كان لهم قلوب يعقلون بها أو أعين يبصرون بها أو آذان يسمعون بها فالآيات أمامهم، وما عليهم إلا الإيمان به واتباعه عما قريب، فالصراع نهايته محسومة ولا معنى للتلكؤ أو العناد.

وقد جاء في خواتيم السورة تعليقاً على القصة: ﴿ وكأين من آية في السماوات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون ﴾، فالمشكلة ليست في الآيات التي تملأ السماوات والأرض ثم لا يكون منهم إلا الإعراض.

وآخر آية في السورة هي قوله نعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾، فهل تريد الآية أن تقول إن أولي الألباب،

ليسوا الذين يلحون في طلب الآيات والسؤال عنها، بل هم أولئك الذين تكون لهم الآيات عبرة، أي يعبرون من القصة إلى الفائدة والموعظة، ومن النظرية إلى التطبيق، ومن الفكرة إلى التنفيذ؟.

لقد سأل نيوتن عن سر سقوط التفاحة إلى الأسفل فاكتشف الجاذبية. ومثلها اكتشافات عديدة ابتدأت بسؤال، فهل المقصود بالسائلين أولوا الألباب من أصحاب العقول المفكرة، الذين لهم قلوب سؤولة، تتلمس العبر والمواعظ والحكم والفوائد والدروس، ولا يتوقفون عند حدود الأحداث بل يبحثون عما وراءها؟ وعلى هذا المعنى فالقصة تتضمن آيات لأصحاب العقول وأولي الألباب ليس في زمن النزول فحسب ولكن لكل البشر حتى يوم القيامة.

ولا ينبغي أن يفوتنا التأكيد على أن ما تتحدث به بعض المصادر، عن سائلين محددين من قريش أو أهل الكتاب، على تنسيق بين الفريقين، لينظروا مقدار علم الرسول بقصة يوسف وإخوته، وبالتالي يتبينوا صدقه عليه الصلاة والسلام، خبر لا يصح سبب نزول في ميزان علم الحديث.